حسن شوتام

من أجل ثقافة مغربية رقمية تواكب العصر

مجلة إتحاد كتاب الإنترنت المغاربة

مجموعة قصصية

ومابل عرقي يباس الصغار

www.ueimarocains.com

سلسلة إصدارات إلكترونية

جميع حقوق النشر محفوظة

سيرة إبداعية موجزة:

حسن شوتام، أستاذ تعليم إبتدائي من مواليد ١٩٧٦– الطاوس– إقليم الرشيدية.

نشرت له العديد من القصص و النصوص النثرية في جرائد وطنية مختلفة بالإضافة إلى مواقع أدبية عربية معروفة.

ورقيا صدرت له مجموعة قصصية سنة٢٠٠١ بعنوان السبت الحزين."

مجموعة قصصية

وما بلّ عرقي يَبَاس الصّغار!

القاص المغربي

حسن شوتام

حقوق النشرمحفوظة

2013

مجموعة قصصية

وما بلّ عرقي يَبَاس الصّغار!

القاص المغربي

حسن شوتام

منشورات مجلة إتحاد كتاب الإنترنت المغاربة الإلكترونية

2013

جميع الحقوق محفوظة

الإهداء

مجموعة قصصية

وما بلَّ عرقي يَبَاس الصّغار!

القاص المغربي حسن شوتام

إلى المبدع و الأستاذ الفاضل عبده حقي الذي ساهم في جمع حُزم هذا الحصاد لنقدمه للقارئ خبزا طازجا ساخنا يُقتسم بكل ودّ وتواضع وفرح..

إلى كل أمهات العالم..

إلى أمي..

التربة.. الوطن ..

تقديم

ليس هناك أجمل وأصدق وأبدع من كتابة الهامش .. في الهامش ينكمن التفرد وتنحسردائرة الكتابة في رحم بلورة الخصوصية ... من هذا المستوى إنكتبت تجربة القاص حسن شوتام في مجموعته القصصية " وما بلَّ عرقي يَبَاس الصّغار!" التي آثرإلا أن يقدمها لقرائه في إضمامة رقمية ضمن منشورات مجلة إتحاد كتاب الإنترنت المغاربة الإلكترونية .

وتأتي هذه التجربة بعد تجربة قصصية سابقة موسومة ب "السبت الحزين" نشرت ورقيا سنة2001 .

وللحقيقة والصدق فقد إكتشفت مع هذه الإضمامة القصصية قاصا مغربيا متميزا ومتألقا يحفرمجراه الحكائي الجميل الصامت بيراع لغة منتقاة بصرامة شعرية فائقة وبطريقة سردية تلتئم في بنيتها كل الوحدات والأقانيم الضرورية التي تشي عن هاجس دفين في ذهنية حسن شوتام ينطلق أساسا من قاعدة مجاراة رواد القصة القصيرة في المغرب وليس الإذعان لإغرءات مجانية النشرعلى أسانيد الشبكة العنكبوتية وما تزرعه من مخادعات وحافات يسقط فيها الكثيرون ...

أخيرا هنيئا للمكتبة الرقمية المغربية بهذا الإنجازالقصصي الرائع للكاتب الواعد حسن شوتام .

عبده حقي

قاص وروائي

مديرومنسق موقع إتحاد كتاب الإنترنت المغاربة

الفهرسة

1. نافذة الاغاثة
2. خيالات
3. أأغوتك التجربة أم سلافة الأسنان؟
4. لهيب الثلج
5. و ما بلّ عرقي يباس الصغار!
6. قلب سكيب
7. أمي..
8. ألبوم صور
9. سعيد
10. لأن الجوع هو المأساة

نافذة الاغاثة

"حتى متى أصبر و أنتظر يا إلهي؟" اندفع السؤال حارّا ثائرا كما من فوهة بركان نشيط نفذت صُهارته من بين أضلع منى؛ مغلّفة جسد الصغيرة الشقراء على ركبتيها بسحابة كثيفة من الحيرة. كانت تلك أول مرة تغتصب فيها "منى" عذرية الصندوق السري مُعلنة هشاشة أركانه وصدأ نتوءاته الصدفية البرونزية. لطالما أمعنت في الكتمان واحترفت لعبة الأقنعة كيما تُبقي الصغيرة "ريم" في دائرة أمان وهدوء بعيدا عن المشاكل والخلافات الأسرية؛ و قلّما وقفت أمام جموح زوج اندفع وراء نزوات واهتمامات دونية حدّ تمزيق الرباط المقدّس وتدنيسه. أتراها تدفع ضريبة الصمت؟ أم هي ضحية هرطقة ذكورية تشكّلت وتطوّرت وتجذرت عبر مدارات الزمن آخذة سمة اللزومية؟

ـ أمي!

ـ أي حبيبتي!

ـ كم يوما سنمضي عند خالتي راحيل؟

ـ لم نصل بعد حُلوتي وتفكرين في الرجوع؟ خالتك ستغضب!

هذا ما كانت تخشاه "منى"؛ من اللّجج العميقة في باطن مخيّلة الصغيرة ستتفجر الأسئلة الكبيرة والمُلغزة وقد تستحيل طوفانا يغمر صندوقهما السرّي فيعبث بمحتوياته ويكشف خباياه! مشهد الطوفان أرعب "منى" فقررت توجيه فراشات الأميرة "ريم" نحو مراع خضر بعيدا عن برّيتها الموحشة وشمسها الحارقة. بحنان ضمتها إلى صدرها و كأنها تحميها من مجهول، ورغم خلوّ المقعد بجانبها من أي راكب فقد فضّلت إبقاء "ريم" على ركبتيها متجاهلة حرارة أغسطس وهذا الهواء الساخن، المضغوط داخل حافلة-فرن غير مكيّفة. وحتى ما تسلي عن الصغيرة بعض الملل والتعب، طفقت تدندن لحنا كنسيا قديما وهي تداعب خصلات "ريم" الذهبية بأطراف أصابعها معيدة إليها شكلها اللولبي الفاتن، و لعل هذا ما حمل جسد "ريم" على الاسترخاء فالاستسلام لشذى صدر والدتها وما ينضح به من حنان وطيبة و أمان.. حينها صعدت من أحشاء "منى" زفرة عميقة و كأن ما لحق بعشهما من عبث وتفكّك تحوّل إلى وحش يمارس حياته فيها كلّما غفت أو حنّت لهدوء نسبي أو راحة وقتية؛ تارة يغرقها في حوار داخلي رتيب لا رأس له ولا أساس وتارة أخرى يتقمص دور الزوج باحترافية وأداء مقنعين معطيا لخبرات الألم فرصة التكلّس والحضور..

ـ الحياة معك "منى" صارت لا تُطاق! تحشرين نفسك في كل شيء! تريدين ضمّي إلى حامل مفاتيحك؟ ارحميني يا امرأة !

ـ الحياة معي صارت جحيما؟ هل تأخرت يوما عن تلبية طلباتك؟ الوحيد الذي له الحق أن يرغب ويريد ويأمر ويرفض ويفرض هو أنت! مراد، أعلم أنك لم تعد تحتملني رغم جهلي بالأسباب لكن ما ذنب طفلتنا ريم؟

ـ وما دخل ريم في الموضوع؟

ـ ما عدتَ تأخذها في نزهات أو تتصابى معها مثلما عهدتك على السجاد! ما عدت تهتم بها و كأن سرّ الأبوة فيك قد مات !

صدر عن ريم فجأة صوت أشبه بالأنين و كأنها مايسترو حوار نشاز أمعن في التهاطل من سماء غاضبة بلون الدم والنار والكبريت .

ـ ماذا تفعلين منى؟

ـ كما ترى؛ أعدّ حقيبتي..

ـ إلى أين؟

ـ إلى أي مكان، المهم بعيدا عن هذا الجحيم!

ـ أها..جلسنا وفكرنا وخططنا وقررنا؛ وها نحن نُعدّ الحقائب ونحط كل شيء موضع التطبيق من دون اعتبار لأي سلطة في البيت أو ترتيب!

ـ من فضلك مراد؛ كفّ عن هذا الأسلوب فجسدي منهك وذهني مشتت أما صدري فقد امتلأ من مشاجراتنا الهستيرية حدّ التخمة !

ـ سؤالي واضح و محدّد؛ إلى أين ستذهبين؟

ـ سأزور أختي راحيل لبضعة أيام وربما سأقضي الأجازة كلها هناك.

ـ ماذا؟ الأجازة كلّها؟ ومن سيرعى شؤون البيت؟ بعد أسبوع سألتحق بالعمل !

ـ يااه مراد! تريد من الجارية منى أن تهتم بطعامك وشرابك ولباسك، أما العشيقة، الخليلة فب..... ! ! ألست تخجل من نفسك أيها الأب المحترم؟

ـ هل اتصلت بك راحيل ثانية؟ ملأت ذهنك أكاذيب وخرافات! شحنتك كالعادة ضدّي؟

ـ يا زوجي العزيز، تفكّر دائما كما الأطفال يفكرون. الكل بات يلوك قصة علاقتك بتلك الحشرة! وحدها حمارتك الصامتة اختارت عدم التصديق طلبا للتعزية، لكن البارحة عند الفجر رأيتكما تتحاوران عريانين عبر الانترنيت و ...

ـ اخرسي !!!

توقفت الحافلة فجأة و تصاعد من مقدمتها دخان قاتم أجبر الركاب على النزول سريعا خشية أن ينفذ الدخان الأسود إلى الداخل فيصابوا بالدّوار أو يُجبروا على لفظ أمعائهم في أكياس بلاستيكية، آنذاك تدافعت الأجساد عبر الممر الضيق فامتزجت رائحة البنزين بزفراتهم العميقة و كأنهم عائدون للتوّ من ساحة حرب أو أُرسِلوا أحرارا بعد أسرٍ في أرض غريبة. كانت المنطقة التي حدث فيها العطب شبه صحراوية يكاد ينعدم فيها أي أثر للظل لولا أعمدة الكهرباء المنتشرة على طول الطريق والتي بسطت ظلالها المستقيمة الحادة الضيقة مُشكّلة والعمود الإسمنتي زوايا قائمة تخالُها كراسي استراحة تقدّم الدعوة

لكل سائح تائه أو عابر سبيل. "منى" وبعض الركاب فضلوا البقاء في الحافلة ومقاومة الهواء الملوث بمناشف معطّرة خوفا على أطفالهم من ضربة شمس في الخارج. و لعلّ كلمات المُراقب وتقريره المقتضب والمُطمْئِن عن حالة محرك الحافلة ضاعفت من قوة احتمالهم وصبرهم مادامت الرحلة ستُستأنف بعد عشر دقائق. بالنسبة للصغيرة "ريم"؛ توقف القطار، السيارة أو الحافلة يعني ياغورت، قطعة شوكولاتة أو كيس فستق مملّح، وبالفعل وبشكل آلي، أجلستها "منى" على الكرسي الذي بجانبها، وأخرجت من مزودها المطرّز قطعة حلوى ملفوفة بعناية في ورق ألمنيوم ثم كيس الفستق الذي لا غنى عنه وقت السفر. وفيما كانت "ريم" تقضم الحبات المملّحة و تتأمل ورق الحلوى الفضي في انشغال طفولي؛ كانت والدتها تكتحل بحبّات ساخنة رمليّة، وتشدّ حقويها بنباتات شوكيّة، متأهبة لطقسها البرّي الروتيني الفردي.. لكن هذه المرّة فوجئت بصحرائها الممتدة الأطراف وقد ضاقت بجموع المسافرين والتائهين والمغتربين والنائحين والساجدين و الراكعين و المعطّلين و المتشكّكين والخائفين و المتنعّمين و .. و..هياكلهم مطمورة في الرمال إلى الصدر، ولسان حالهم: ابتعدي "منى" لا تقتربي من هذا القفر! شُلّت حركتها تماما لرؤيتها ذلك المشهد و ظلّ صدى تحذيراتهم يتردد في داخلها لبعض الوقت إلى أن تلاشى وضاع بين حروف عبارة بارزة أمامها: " نافذة الإغاثة."

حوّلت "منى" انتباهها عن الصحراء و أخذت تراقب ظلال المسافرين وهي تستعرض ألوانها القوس قزحية على هامش الطريق، متداخلة حينا متقاطعة و متماسة حينا آخر لكن قلّما لحظتها متنافرة متصدعة.. كانت منسجمة، متفاعلة و عفوية أكثر من حامليها وكأنها تعرض أمامهم نموذجا أصيلا للحياة .

استمرت "منى" في تتبع الظلال المتحركة فيما يشبه العبث وقد ألصقت خدها بزجاج النافذة، مُردّدة اللحن الكنسي القديم ذاته، وكلّما حجبت السحابة الصغيرة "العرض الظليّ " الرتيب؛ كانت تلفّها بحركة دائرية سريعة داخل المنشفة المعطّرة ثم تواصل المشاهدة، كان طرف الثوب الأرجواني المعتّم بين أصابع يدها ينتظر نهاية العرض بيد أن شعورا خاصا انتابها على حين غرة فلم تقو أو تجرؤ على إسداله، لم تتعرّف "منى" مصدره لكن أحسّت به يمتلكها، يسود عليها، ويخلق فيها أشياء جديدة لم تختبرها من قبل..واصلت "منى" متابعة "العرض الظليّ" بجوع وعطش غريبين باحثة عن ظل يشبهها، يحاكي تيهها وغربتها في البرية، يجتثها من تربتها المالحة ويزرعها في عذوبة المعنى..على الجانب الأيسر من "نافذة الاغاثة" لاحظت "منى" يدين صغيرتين تثيران الغبار بنشاط زائد فتتبعهما يد كبيرة لتنفض عنهما الغبار وتحوّل حركتهما نحو شيء آخر، بل كلّما أصرّت على منعهما أمعنتا أكثر في العبث بالتراب وهكذا.. تحيّرت "منى" مُحملقة في تلك اليد الموجّهة و المصرّة على منع الصبي من إثارة الغبار دون كلل أو ملل.."ماذا تراني صانعة بالصبي لو كنت مكان تلك الأم؟" حاصرها السؤال لكن لم تجرؤ على مواجهته فقررت نقل فضولها والتطلع إلى الأم جملة هذه المرّة من غير تفصيل.."مستحيل إنها هي..نعم أعرفها حق المعرفة لكن لمَ هي تشبهني حدّ التطابق؟ لا..لا..من غير المعقول أن أكون أنا! لست أحمل سمات تلك الأم الصابرة المُحبة بلا حدود! أهي الحقيقة يا إلهي و أنا ظلها؟ وماذا عن الصبي؟ لعلّي أهذي من ضربة شمس..طفلتي الوحيدة هي "ريم" من أين لي ذاك ال..صب...؟" تخشّبت الحروف في حلقها، بل صُعقت حينما مرّرت بصرها على تقاطيع وجه الصبي..كان هو؛ "مراد" زوجها بنزقه واندفاعه يثير غبارا أصفر من حولها، منتعشا بظلها الأسود و مُراوغا تلك اليد الكبيرة؛ يدها المثقوبة، المُوَجّهة والمُصِرّة على منعه من إثارة الغبار دون كلل أو ملل !

خيالات

تُغريني مخيّلة الأطفال، فأقرّر ذات يوم خطة تمكنني من استحضار صباي المنفلت كقبضة ماء.. تأسرني رغبة التصابي، فأهمس في قلوبهم، بصوت رفيع، رقيق، طفولي: أحبتي الصغار، قبل مغادرة الفصل، سنمارس جميعنا لعبة مسلية تسمى " الخيالات"، هيا، اغمضوا أعينكم الجميلة، تخيلوا موقفا، أشياء تحبونها، أشخاصا، أي شيء.. هيا! في استسلام وحماسة يعانقون الظلام... تغويهم العشوة المصطنعة.. يبتسمون.. ربما سئموا - هم أيضا - الأنوار الزائفة، والنُهر المعتمة! ثوان فقط، تُفكّ عقدة اللسان، فيشرع تلامذتي في الكلام ووصف التمثلات ..

- أرى أمي جالسة في فناء الدار، وبين يديها رضيع كالحمل، تهدهده بحنان فيغفو.. كم هو محظوظ ينعم بالدفء والراحة، بينما يقرسني التعب والبرد في حجرة الدرس..(يضحك) أوه.. قطنا يتكلّف النوم.. يتمطّى كقطعة قماش بالية.. صه! عصفور يلج الحلبة.. خدّرته الشمس وامتصّت تيقظه.. بف! وقع في الشرك !

ـ أنا يا أستاذ أشاكس الخنافس، رائحتها الكريهة لا تزعجني، أنتقي واحدة وأقلف سقف جسدها، أعرّيها كما أقشر البرتقال، انقباض واهتزاز الشحم يسلّيني.. الآن.. (فاغرا فاه) أرى السماء حالكة سوداء كسقف خنفساء، أقلفها هي الأخرى.. لا شحم ولا جنّة.. الخواء والسواد فقط.. أقيء هذه المرة !

ـ أما أنا، أتصوّرني أمشط شعر أختي الشقية، أشدّه بقوة، فتصرخ مقطبة، مدمدمة، أبدأ في الانشاد كيما تهدأ: مدرستي الحلوة.. مدرستي الحلوة.. مد.. تقاطعني، وتزهق من أسنان المشط محتجة: أين هو نصيبي من حلوى المدرسة؟ لن تمشطي شعري بعد الآن حتى أحصل عليها !

ـ أرى حقولا متعددة ألوانها، يتوسّطها جسد بدين ضخم لا يتحرك، جلبابه مرقع.. لا وجه ولا ملامح تميّزه.. قالوا عنه فزاعة، غير أنه بريء، طيّب، يحترم العصافير، فلا تهابه.. بل تشحذ مناقيرها استعدادا لكشط السنابل.. الآن.. أدنو منه.. أسخر منه.. أُسْقِطُه وأحتلّ مكانه.. أستحيل فزاعة متخشبة..أبتسم، فتخفق العصافير وترحل !

ـ أخرج من المدرسة والغبطة تدفعني كما الريح للتسابق مع أقراني.. نتدافع، نتصادم، ونزعق كالمجانين.. في طريقنا، نلتقي بلص القرية الشهير "علي"، نتحاشى نظراته المرعبة، ونطأطئ رؤوسنا، وإذ نبتعد عنه، نستبسل ونُسمعه نشيدنا الجماعي اللاذع.. "علي" الشقّار يمشي للنار.. "علي" الشقّار يمشي للنار.. يطاردنا ككلب مسعور، تتشتت الكوكبة.. أعدو وأركض.. يلاحقني.. يكاد يمسك بي لكن خفتي تغيظه، يستنجد بالحجارة، فأقرر الاختفاء!

أصغي إلى خيالات التلاميذ والابتسامة لا تفارق شفتيّ، زحف تمثلاتهم يتوالى، يتواتر.. أتذرّع بالوقت ختما للعبة، يصرّون في استعطاف على الاستمرار، أعدهم بتكرارها ثم أطلب منهم الانصراف.. يتخلّف عثمان، أجرأ تلامذتي.. يرمش بعينيه الضيقتين بخفة، كما لسانه يتحرك دون كُلفة: أنت بدورك يا أستاذ، غدا، ستصف لنا خيالاتك.. أليس كذلك؟

أومئ بالايجاب، فينسحب من القسم مقلدا أزيز جرّار. رهين حجرة الدرس أظل، بجدرانها المتصدّعة، وطاولاتها المنخورة العرجاء، ونوافذها المشرعة صيفا وشتاء، بتكثيف لغوي: إعاقة مستديمة وكفى! أتذكّر عثمان وجرأته، أتذكر أيضا طلبه، فأتنفس حجم الورطة، لكن أقرّر ركوب التجربة وكشف خبايا الذاكرة .. أعانق الظلام وأسافر ..

أجدُني متوسطا ركحا عتيقا، خافت الأضواء، موزّع الفضاء. هياكلنا المتوترة تعاني التقلص.. في الكتف وأسفل الحبل الشوكي وفي العنق، جهازنا التنفسي يعاني الاختناق.. في الرئة هواء فاسد.. أعصابنا العقلية والجسدية مقيدة..لا مندوحة لنا من تمارين الاسترخاء، و التنفس، واكتساب السيطرة.. لا مندوحة لنا من خلق جديد يفعل الحياة بكاملها فوق هذه المنصة. أخالُني رئيس الفرقة، أديم التفرس في عيون الطلبة، أنوّمهم وأحملهم على تمثل أبهج الصور.. أنفاسا عميقة يأخذون، ولأعصابهم مُحرّرون.. الصمت يغشى المكان، بين الفينة والأخرى تقطعه التعليمات.. أنتظر ولادتهم الجديدة، تعبيرا جسديا، نطقا سليما، ترنيما مميزا، حركة منظمة ومرونة في الأدوار.. لحظات فقط، أحصد السواد.. السمفونية الآسية تلفّ الصالة، وخدود الطلبة تغسلها مقل دامعة، ذاوية.. يصفعني المشهد وفشل التمرين، أستنسر وأخفق بجناحيّ، أصنع زوبعة مستعيرة لفضح الصور المنتقاة.. الجفون تنكمش، تنحسر فأعتسّ عيونهم بدون استثناء.. قحط، جدب، محل، لا أثر لأي مشهد يسرّ، كلها خيالات نتنة، مقرفة، تهيّج الأعصاب وتُوَتّر العضلات: أحدهم يستمني، والآخر يفتش عن لؤلؤة في الأمعاء، وذاك يؤُسّ بيته بغبن الفقراء، وبقيّتهم يعتّقون الأشلاء !

أشفق عليهم، وعلى نفسي، لا أدينهم أو أدين نفسي.. هو ذا جيلنا العصبي، ضحية الجذور الفاسدة.. أذهاننا ستتجدّد طلبتي الأعزاء، بقلع الجذور العفنة، إنه بداية التمرين !

ما زلتُ ممتطيا حلكة الخيال، والصور تحضرني مختلطة، مصرّة على كشف وخرق الذاكرة، تستقر هذه المرة على فضاء مدرسة سحيقة، مثخنة بالمأساة والأوجاع.. زعيق أطفال، دخان مدفئة، وخفقان راية ممزقة، ثملة.. حمادي، المكلف بمطعم مدرسي، يبدو كدجاجة محاطة بفلاليس، يحشو كسر الخبز بالسمك المصبّر، والأفواه الصغيرة تتحلّب إنتظارا وجوعا.. بخفة تتحرك يداه، توزعان القطع المكوّمة على شكل جبل أو هرم فتضمحلّ دائرة الصغار، دقائق فقط ، يستعمر الصمت المكان، يشغر المطعم إلا من صاحبه، وعلب السردين المشرعة سقوفها الحادة الحوافي.. يتأملها حمادي ببله، يحك شعره المغبّر فتجتث أصابعه الخشنة بعض الشيب، يرمق العلب الفارغة.. جامدة، ساكنة، لكنه يخالها ساخرة، مكركرة.. مذ كان فتيا وهو يعالجها، وما انفك يفعل ذلك، وهو الأشعث، الأشيب.. يتأفف، يؤهّ، يُحسّ الزيت المتراكمة رائحتها كل تلك السنين، تغلي، تتفرقع بداخله، يحمل معدته على تقيئ رتابة، فقر لازمه كالقدر.. يداعب هذه الرغبة بأصبعه، فيقيئ الخواء! يتبرّم، يتأمّل العلب من جديد، هذه المرة تنوشه ضاحكة: وهل يقيئ من كان رهين الجوع والخرس؟ يثور حمادي، يركلها بقوة، فتتطاير في الهواء، معانقة ساحة المدرسة وزعيق التلاميذ.. ضجيجهم علامة ودليل انتهائهم من بلع كسر الخبز، وأيضا بحثهم سبل صرف فائض طاقتهم.. صدى ارتطام العلب بالأرض لوى أعناقهم، وصرفهم عن اللعب.. لا مجال للّهو والبطن ضامرة، طاوية.. الآن، يبدأ التسابق والتدافع، تستيقظ لذّة اللّحس، ويشرع الكلّ في التنافس والتصادم، يُثار الغبار، ويحمى الصراع، أُضَيِّعُ وسط اللقطة، لكن أخطف النهاية.. العلب المُهملة تعاني الأسر واللعق بلا رحمة، دروعها المسنونة، شرمت الألسن، ومزّقت الأصابع حتى الإدماء بيد أن الصغار أبدا ما أحسوا الألم.. همهم الوحيد، خنق ذاك الوحش الذي ينمو و يتكاثر في

بطونهم.. حمادي بسرواله المُرقّع، يحك رأسه المتلفع، يتسلّى بمشهد التزاحم و التدافع ونَهَم لاحسي علبه الفارغة، المركولة.. " اتفُو.. إننا نعيش الثبات!"

أخلُص أنا الراكب جرح الخيال إلى هذه النكسة: أن تعاني الثبات، والركود كماء آسن، فاسد، يعني الانخراط في دائرة المتجاوز أو المهجور.. ربما الخروج من الطبيعي المتجدّد، إلى الشاذ المنبوذ.. طيف عثمان يمثل أمامي بكل شموخ.. آه لو أملك طهره، براءته، جرأته، لو أرتقي لأسلوب الصغار.!

قفرُ الذاكرة عاهتي، عجزُها عن امتصاص الألم محنتي، الخيالات عفنة، مُمِضّة، ممنوع وصفها لأحبتي.. أخيرا أبحر مع عاشق زاده الزهر والأمل، أراه متأبطا كتابه، والقصيدة الخجلة ترنو لهمس الحبيبة، وحوَر العيون العنيدة، يحثّ خطاه، والقلب البعيد يهفو ويقترب، يسوّي هندامه، ينتظر اللقاء الحلم على عتبة الباب، يقرع ويقرع.. يتردد صدى الغياب.. يتشبث بالأمل، يطرق الباب مرات، يلكزه غياب تام، ورحيل مُؤكّد.. يتلفّت يمينا ويسارا، جميع الأبواب موصدة، أيسأل عنها الجيران أم الجدران؟ اللاأدرية المرعبة تتقفّى حرقته، طريقه نحو المجهول.. إنه يزحف، يُحوقل في مشيته كشيخ دكّه قرّ السنين، أملّ مسيرته الطويلة، البطيئة، فأسمعه صوتا من السماء، لأحدّ بحثه وشقاءه: ضالتك ضمّها التراب، حبيبتك أقامت عند الرب، اقفل وارجع، فحاجتك لن تصيبها مهما عاندت !

ـ وأين شاهد قبرها.. أين.. أين؟!

هكذا يزمجر ملغيا قدسية الصوت السمائي،أباركه وألفه في الظلام.

يستشيط غضبي، مللي، فأقرر تمليط ثقوب الذاكرة ، أفتح عينيّ، وأشبعهما من إعاقتنا المستديمة، لأدرك أن خيالاتي وتمثلاتي امتداد لها.. أنسحبُ من الفصل وثقل الورطة يلازمني.. أفكر وأهمس لنفسي: كيف أصف النتانة لأطفالي.. أنجّس الطهر والبراءة، وأقضّ مضجعهم بأنّاتي؟ لكن، أليس من الضروري إعدادهم لغبن المأساة، إعدادهم لزمن الخطيئة المؤكدة؟؟ وأُحرق المرحلة الملائكية؟! لا.. لا.. لن أفعل ذلك ولو تعمّدت الكذب! أجل.. لم لا أكذب؟ أوليس الكذب سِمة كِبرنا ومأساتنا؟ سأكذب لخاطر تلامذتي، ألمّع تمثلاتي المغبّرة.. عذرا عثمان سأنحدر لأسلوب الكبار!

أأغوتكَ التجربة أم سلافة الأسنان؟

حذاريكَ مَدَّ يدكَ مُصافحا، سيتخمك الموقف وتردّها خائبة، منكّسة إلى جيبك، بكلمات مقتضبة ستحيّيك، وبنظرة سريعة سترمقك، ولأنك كريه أو بدون رائحة.. ستحتفظ بمسافة تليق بشَمَمِها.. تصعيرُ الخد والتعالي جزء منها، وعلّتها مذ تسنّمت مقعدا أرجوانيا، جدّك ربما هندس أركانه! ادبرها أنت الآخر، واستعدْ رزانتك ثم انكأ جرحا قديما.. " يحسن بي تفهّمها، ردود أفعال ليست إلا! " هكذا علّلْ صفاقتها. اثبتْ على الرصيف الندي، دعْها تنقره لتقرّر أمرا.. قبالة المدخل الزجاجي تسمّرْ، وتأمّل الحياة في المحطة بألوانها: شاب يُطارح حبيبته الغرام! تنهّدْ مِلْء ذكرياتك، زُمّ شفتيك ثم هَمْهِمْ مُعَلّقا.. وقبل أن تلوي عنقك لتصيّد خربشة أخرى، ينتصب الجسد أمامك، بالكاد ينعكس.. الاكتناز ذاته، والشموخ نفسه.. يستحيل الانوجاد بدونك يا قذرا في عينها! حافظْ على هدوئك والتفتْ، دَعْها تُبحر في عينيك، تتفرّس، تبحث عن ألق يؤيّدها بروح الجلد والصبر، فلن تجد غير خواء يصلبها، يدعوها لحمل خطاياها وإدانة شطحاتها وحبها الوهمي في الجسد. اترُكْها تبادر بالكلام.. فلستَ في ورطة، لم تقطع عهدا أو خالفت وعدا، ولا تمسّحتَ طلبا للغفران، وقبل أن تنخرط في أي عتاب أو حوار، شُقّ صدرك، واعصر قلبك، واستعذ بالعقل من الحب الرجيم !

ـ دائما وكما عهدتك، شاردا وكأنك تخط هذيانك ..

ـ أتحية هذه أم إهانة؟

ـ فقط أستفزك أيها المسافر الوحيد.. قالتها في غنج.

ـ لم كل هذه الصفات وهذه الإنشائية؟

ـ هكذا كانت حواراتنا بعيدة عن كل تقريرية!

ـ كانت.. و..

ـ تقاطعه : وستبقى، ما دمنا ننشِق معا هواء هذه المدينة ويُسهّد قمرها عيوننا الحالمة!

ـ حقيقة ما عدتُ أفهم شيئا، أكلّما شطبتُ ذكرى، وسلّمتُ بالنهاية تُصرّين على البدء؟

ـ أنا لم أقصد خلقا أو بدءا جديدا.. ما بيننا كائن ومُستأنف. اسمع، أنت بدوني تيه وخراب، جسد نخرته الديدان حتى العظم.. تأمل تقاطيع وجهك.. وترتيب هندامك، المدخل الزجاجي خلفك إن شككت في حكمي ..

ـ(يتجاهل تعليقها) مثلما ألفيتك أول مرة.. مظهرية حتى النخاع !

ـ(في خبث ..) لا تنكر أنك أُخذت به كالمسحور.. أتذكر عزيزي؟

ـ أجل.. (يعضّ على شفته ويزفر..) كان بريقا.. صورة آخذة لمحتوى أمقته!

ـ لنتجاوز هذه السلبية، ولنناد ذكرياتنا الجميلة.. " رائع أن نبحث عن وجه جميل لقبح محقق!" هذه حكمتك فلتعشها وتمثلها وحرّرها من قضبان أوراقك!

-.....

تذكّر حبيبي أجندتي.. ترانيمي.. تربتي التي حققت من خلالها الانتماء! واذكر حناني ساعة الهجر والعزلة وصدري الذي ساع كبواتك.. أتقذف كل هاته الأشياء من ماضينا في وحل النسيان.. وهدايا أعياد الميلاد حيث البكاء وصرير الأسنان؟

-.....

ـ أتذكرُ عزيزي لقاءنا على الشاطئ الصخري.. والنوارس شهود، والبحر هادئ كعينيك الحالمتين.. كنتُ أرقبك من بعيد، تنتظر سمكة تعلق بالصنارة فعلقت أنا، عروس البحر.. (تكركر)

-.....

ـ لم لا تُجار حنيني واستذكاري؟ ماذا عليّ صنعه لمصالحة روحينا .. طمرتُ أنوثتي وتنازلت.. بل تذللت لخاطر حبنا الكبير.. فلم تُقم لي وزنا أو أدنى احترام.. أنسيت من أكون؟ لا تبق متخشبا، ساكنا، قل شيئا.. تكلم! !

واتركها ترفس.. دقيقة جلد وينزاح الهمّ، خير من صفح يغرقك في الغمّ.. البطل قرارات ومواقف، واختيار للصعب حتى الموت.. يا صاحبي، انزحْ بئر ذكرياتك، واكشفْ محتوى الصورة الآخذة، المخدرة، الزائفة.. ابق متخشبا، ساكنا، صامتا.. فأقوالنا خطيئة وأفعالنا خبطٌ تثير الغبار بدل التمزيق! لا قدرة لك على المكاشفة والمواجهة؟ قُلها ولا تخجل، واترك لي مهمة الفضح والمغامرة.. لا مناص من ذلك ولا فكاك! سأُذكي انفعالك، وأبعثُ ذكرياتك.. بعد موت، أنشرها، أحييها.. وليكن في الختام قرارك!

عروس البحر كانت هناك.. عارية إلا من الأمواج، ترقص مُرسَلة الشعر، وتبتسم عن أسنان مرجانية.. فأي قدر ساقك إلى هناك؟ أُذِيعَ الخبر، ونُشِرَ في الصحف والمجلات، عروس البحر عاقرت ربان السفن، تعرّت، رقصت حتى خبّ اليم، وكشّر عن أمواجه.. فتلقّحتْ بالشراع، واعتمدت الدّقل، وضاعت كل السفن العرجاء! قرأتَ الخبر.. تشكّكتَ.. فأهملتَ الجريدة.. أأغوتكَ التجربة أم سلافة الأسنان؟

على الشاطئ الصخري كان اللقاء، وكان الليل وجها حزينا يداعبه الغبش، في البداية تشاءمتَ، نكّستَ رأسك ونظرتَ بأسف إلى قدميك.. فجأة شدّتك النتوءات، استبشرت خيرا، وختمتَ بما يشبه الهمس: حبنا مؤسس على الصخر! عروس البحر أدمنت الصياد البسيط وقفته القصبية، كبلتها تجاعيده البارزة وأحلامه المُغيّبة، ربما كانت تتنفس مجدها من خلاله، أو فقط تعاند كبرياءه، وتلك العملة النادرة التي ماانفك يتبجح بها ساعة كل دردشة: الكرامة والمبادئ! ذات مساء والقمر مُكتمل سألها: من أين لك هذه اللآلئ وهذا الجسد الممتلئ و تلك الضفائر الموصلة بالذهب؟ انتفضتْ بين ذراعيه، فكّت ساعديه، وبحركة عصبية أبعدته عنها واختفت! علّلَ نرفزتها دلال أنثى، فاختار التوسل والاعتذار.. ابتاع هدية لكن رفضتها.. آن اللقاء حاصرها ..

ـ جئتك متوسلا، قبّلتُ يديك، ولو كانت لك رِجلان لفعلتُ ذلك، فأنت تربتي التي أحقق من خلالها الانتماء.. فما سبب هذا التمنّع؟

ـ أسئلتك المتكررة تنوشني..

ـ أنا إنسان أفكر، أبحث، أتواصل، أستفهم!

ـ أنت تهمة، جريمة في عرفنا..

ـ إذن كيف يكون اتحادنا ونحن بهذا الاختلاف؟

ـ التنازل حبيبي مفتاح اجتماعنا!

ـ التنازل؟!

إيه.. تبدّلت اللهجة، ونُفيَت الهدايا، الأحلام والأماني، ما بقي عهد ولا ثبات في المشاعر دائم، حان وقت الجدّ ولا بد من التنازل، وأي تنازل؟ عروس البحر تقبلك إن رضيتَ بشرط المبادلة.. دماغك، قفتك القصبية، قوانينك وعاداتك الأرضية، حتى رجليك وساعديك.. ففي مملكتك الجديدة، لن تفيدك في شيء.. ستعيش مثلها على الحيتان الصغيرة، ومتى تسمن ويكتنز هزالك، تبحثُ عن طقوس أخرى توائم جلالك. في البداية ما صدّقتَ حدسك، وكذّبت ظنونك الملحّة، قلتَ: علّمني الصيد ألا أفرح بسمكة تترنح بين الشصّ والنهر، فكيف أسيء الظن بها من غير تبيّن؟ أخيرا وعلى حين غرّة، قررتَ المجابهة.. مزقتَ صفحة الماء الفضية، وغُصْتَ في مستنقع عروس الوهم.. تبيّنتَ وسبرتَ الأغوار كما شئت، لم تصدّق ما خبرته حواسك.. عروس البحر كانت هناك، عارية إلا من القبلات، ترقص منحسرة الشعر، وتكركر عن أسنان قانية، وبقايا حيتان عالقة بالأنياب، فأي جحيم ساقك إلى هناك؟ لماذا وثقتَ بسحر تينك العينين؟ وكيف تُبادلك الوفاء والعرفان، قلوب ليست تعيش الحرمان؟ لا سبيل للإجابة، شَحُبَ الوجه، واعْتُقِل اللسان، وخبت شموعك المعدّة للزفاف! أمامك الشاطئ الرملي هذه المرة، تمدّد، تقلّب، تمرّغ، واقبر كابوسك، فحبك مؤسس على الرمال!

أنت الآن على رصيف المحطة، أمامك الماضي وانكساراته: البحر، النوارس، البدر، الحيتان الصغيرة، العري وأشياء أخرى.. وخلفك مدخل زجاجي، إن فكّرت الهروب أو التجاهل استدبارا، تستقبلك نفس الخيالات، والظلال المنعكسة، وتانك العينان الشهلاوتان.. عروس البحر قدامك.. ما أقسى حرقة الانتظار! وما أشد لهيب ذاك القرار! أتركبان ذات القطار وترحلان، أم تُبعث فيك نخوة الصياد المُجرّب، فتمحو لطخة الذل والعار؟ وطأة الموقف تحتدّ، وجبين البطل يتقطّب، وأنا نظيركم.. مُخلّف بين رغبة التشوّف، ولدّة الختام.. صاحبنا آثر الأفق على سلافة الأسنان، إنه يتقوّى بالسواعد المفتولة، بأهازيج البائعات، وهن يجمعن المُهمل من نعناع وبقدونس، قانعات بحصيلة يوم كامل من النواح.. خُيّل له السحاب موجا، وزرقة السماء بحرا هادئا، ثم تراءى له الرب ماشيا على الماء، فاهتاج صدره وفاضت عيناه.. عندئذ أعرض بوجهه وسائر جسده عنها، وقبل أن يخنقه الانعكاس، وبضربة محكمة، تهاوى المدخل الزجاجي.. و معه الجسد الممتلئ..

قيّد النزيف معصمه.. ماجت من حوله الأصوات والأنّات وأزيز الأسرّة البيضاء.. ثم أغمي عليه وابتسامة عنيدة تطل من بين شفتيه.. ابتسامة من أعدم وهمه! !

لهيب الثلج

من ورم خبيث، أتلف العين، وبعدها الدماغ، ماتت "هنو"، أضحت أختها "حادّة" وحيدة، تجرش الحسرة كل يوم، رهينة الصمت والوحشة. الأقارب؟! بعد مراسيم الدفن أثارت نعالهم غبار المقبرة.. بدّدته الرياح وتفرقوا كيما يستأنفوا انجذابهم إلى الكدح فالهلاك ..

كوخها التابوتيّ هذا الصباح رقّهه البياض، داخنته بالكاد تلفظ ما بجوف المدفئة من غبن وسواد، ربما "حادّة" قررت خرق إضرابها عن الطعام! دقائق فقط، تُخلخل باب كوخها العتيق، رغم الوهن تدفعه، فقد نالت منها النكبة، وما عادت قادرة على فتح باب علقت به نفثات من ثلج يناير! أخيرا تستعين بقضيب من حديد، تغرس نصفه بين حافتيه، وما فضل تمنحه طاقتها مزيحة في الاتجاه المطلوب، وبغمغمة بربرية جافة، يستسلم الباب متمايلا أمام رغبة لجوج في معانقة الحياة.. وجه شاحب.. قدمان حافيتان مفلطحتان تغلفهما طبقة سميكة داكنة من الجلد الجرانيتي، تعفيها من انتعال خفيها، حتى وهي تقصد حظيرة المواشي، متجاهلة لسع الثلج، تسوقها هذه الحاجة للاجتماع! كيف لا والفراغ يأكل جسدها كل يوم، وليس من أحد تسكن إليه، ويعزّي نفسها، غير بقرة ناتئة العظام، وخمس دجاجات تقرقر بصوت أشبه بالنحيب !

ألقت "حادة" نظرة ضائعة على الزريبة، اقتربت من البهيمة، مسّدت جلدها الأغبر، فيما أنشأت الدجاجات تنقر بخفة ما دفعت من روث، وقبل أن تغادر المكان، تفحّصت العظام البارزة، وتنهدت عاقدة حاجبيها، كمن استعادت تيقظها وتفاعلها مع المحيط بعد طول شلل وجمود، ثم جرجرت بصوت مبحوح: سأملأ هزالك بالكلأ لما ينحسر الثلج ! !

خلال الأيام التالية، أثلجت السماء حتى بات الخروج من الأكواخ صعبا، ما عاند أحد رداءة الطقس، خلا ثلة من النساء، أُجبرن على حَمْل أوعية طلبا للماء، أما الرجال فمقرفصون عند المدافئ، ينتظرون رقصة الشمس، ليعاودوا انتظامهم التسلسلي أسفل كوات المنازل ويستمتعوا بلفافات محشوّة همزا وتبطّلا!

حبيسة البيت ظلت "حادة".. بين الفينة والأخرى، تخفّ إلى الزريبة وبين يديها الخشنتين حزمة من عشب يابس، أو حفنة من الحبوب، والأمل الكبير في انحباس الثلج يتعاظم يوما بعد يوم، لكن هيهات فقد تواترت الليالي بطيئة، منهزمة أمام فضاء ناصع، وحده القرّ تعاظم مستويا على نعيب رياح غاضبة فاخترق كل المنافذ.. ثياب "حادة" المهلهلة، ارتقى عظام قفصها الصدري، ضعضع دفئه النسبي، ثم خرج من ممرق آخر، حاملا إلى آذان العابرين تباشير السعال والأنين. حُمّت "حادة" وانتكست من جديد، رفعت عينيها المعمشتين إلى السقف.. كان قاتما فأربكها السواد، أشاحت، دوار شديد أصابها، أحّت، بصقت تحت الحصير، شدّتها قشة برسيم.. "لو يأتي ويكسرها، يباركها لتأكلي حتى الشبع"!

انتظارا انتظرت "حادة" بزوغ الشمس، وفي إحدى الصباحات، تناهى إلى مسمعها صوت كالخرير.. ولما دكّها اليأس والبياض الأبدي، ظنت أنه الطّنين، فتجاهلته، مكتفية بنظرة خاطفة مرّرتها على المكان

الندي ، ساعتئذ، لاحظت هباء دقيقا يمزق العتمة، فركت عينيها.. كان خيط الشمس واضحا هذه المرة.. لقد انحسر الثلج!

من فرط المفاجأة، قفزت حادة، اهتزّ خاطرها، والتبست عليها المشاعر، سحبت دقّة الكوّة مانحة نسيم الصباح وجها متغضنا وشمته سنوات الاحتراق.. إنه العراء يناديك يا سليلة الأطلس الكبير الشرقي! قرون الأيل تتحدى أنياب محشّك، فاكشفي عن ساعديك وتمردي! تسمّرت "حادة" أمام الكوة متشبثة بالقضبان الصدئة، رنّمت لحنا أمازيغيا حزينا، وأخذت تتأمل المنازل التابوتية التي تبكي فقدها للأنس والصحبة، بعد أن سرقت الشمس كل الأجساد، لتخفرها من جديد.. عاد بها اللحن إلى أيام مجيدة، ملؤها الخصوبة والنشاط، لحظة كانت تحمل حزمات ضخمة على ظهرها، صاعدة عقبات البلدة دون حوقلة أو تمايل.. مرّت وجوه أمامها بيّنة وقد اتقدت الذاكرة.. فاضمة، احساين، اعبي، باسو، هنو.. سلسلة من القسمات البائدة شلّت حركتها، بيد أن اللحن ماانفكّ متواصلا يربطها بالحياة، سرعان ما عرج بها إلى الحظيرة، والهمّ الكبير الذي حملها على القيام رغم التعب: البقرة! الهزال والكلأ !

عندما دفعت حادة الباب الخشبي، كانت البقرة تتمرّغ على جنبها المعدودة عظامه، والمخاط يسيل من أنفها غزيرا، أصفر بلون الموت. في وجل تهاوت الفلاحة بقربها مصعوقة، تتفحص بيدين مرتعشتين الدابة المترنحة، كان هزالها هذه المرة مخيفا، ينبئ بالنهاية.. وقفت "حادة" معتمدة ركبتيها والخوف يمتص قواها، إلى ركن كُوّمت فيه أكياس مهترئة جرّت قدميها، سحبت واحدا، ثنت فوهته لتبلغ ما تبقى في القاعدة من علف، وضعته عند رأس البهيمة، ثم خفّت إلى الداخل محضرة وعاء ماء.. حاولت إنهاض الدابة فما تمكنت، أنى لها ذلك وقد أنهكت وشاخت قبل الأوان! ضاعت "حادة" فيما يشبه البحث والتفكير، معتقدة أن لا مناص من شدّ أزرها.. "حسبك "حماد" إنه أقرب ملاذ!" هكذا حدثتها نفسها المضطربة، فهرولت قاصدة بيته.. طرقت بابه القصديري فما فتح، قرعته بشدة وما سمع، نادت عليه فأزاح المترسة عن الباب، كاد ينخلع لما جذبه..

حادة؟ !! نطق اسمها كمن رأى وجها صائخا في الغياب، ومعه زفرة كريهة، لم تتعرّف المُستنجدة عناصرها الكحولية.. إنه "احماد" عربيد القرية.. ضخم الجثة، منتوف الشعر، على وجهه سيماء البلادة والرعونة.. هي سمعت عن أخباره ومغامراته، لكن ما هجر أبدا بالها اقتراحه الزواج بها، بعد وفاة بعلها! وفيما كانت تشكي خطبها وحاجتها حاثة إياه على الإسراع، غرق "احماد" في استيهاماته وتحرّقه.. "ما ألذ الأجساد المذعورة!" ثبّت نظرات ثملة على مناطق محددة من جسدها، فاندفع الدم إلى عروقه حارا، ساخنا، ثم أمسك بيدها.. فحّ قائلا: هدئي من روعك، ستمضي الأمور مثلما رغبت، الجو بارد في الخارج، سأزكم إن خرجت بهذه الثياب الخفيفة.. تعالي! بحذلقة جرّها إلى الداخل، أترس الباب، فسرت حرارة غريبة في جسد "حادة".. إيه.. كم أُصقع هذا الجسد، كم أُلغي وأُعدم وامتُصّت سخونته في البيداء! ماانتظر "احماد" جلوسها، أحاطها من الخلف بذراعيه، ثم همس في أذنها بصوت دافئ: فلنتزوج "حادة"، أنا وأنت وحيدان، أيرضيك أن أبقى عازبا وأنت مهجورة إلى الأبد! اقبليني وسأصير لك عبدا.. أحبك.. أحبك.. أحبك..

حاصرها بالقبل، على البساط المرقع أسقطها، حاولت التخلّص من سياجه، بيد أنه كان محكما مُصرّا على الخدش.. عاندت فورته مذكرة إياه باحتضار البقرة، لكن جثته المحرورة أخرستها، كمّت تمردها، أيقظت شهوتها حد الاستسلام!

في ارتخاء حزم "احماد" سيور بنطلونه، ارتدى جلبابه وانتعل خفيه ثم خرج. بعد ساعة قفل عائدا والوجوم يغشاه ملء الوجه.. "حادة" استحلت البساط والملاءة فظلت مستلقية، عندما اقتحم الغرفة، تحركت، رفعت رأسها مستطلعة، نفحها الإطراق والوجوم، أحس "احماد" توجّسها، اندسّ بجانبها نصف ممدّد، أجابها قبل أن تستخبر: العوض على الله.. ماتت البهيمة! جفّ حلقها، خانتها الكلمات، أوصالها المتعبة، دفنت هامتها في الوسادة، بكت في صمت، تاهت في خرائط التفال!

لاينها "احماد" مستحضرا كل طاقته، وحنكته، ونزقه.. أمطرها وعودا، ملّط جميع الثقوب التي فتحتها، أثر فيها لطفه، سخاؤه وهي الأرض المَحْلة المشتاقة، المحتاجة للبلل.. تزوجت "حادة" وتكلّف "احماد" الاستقامة.. لاطفها أكثر وأكثر، وسوس لها حتى أقنعها ببيع المنزل: روح "هنو" خنقت البقرة، لم تمت من مرض أو قلة العلف، ولن تهدأ حتى تأخذ معها كل شيء، هذا ما شاع في القرية، ماتت الدجاجات الواحدة تلو الأخرى.. وقد تختارك هذه المرة، أنت أقرب الناس إليها.. لا بدّ من بيعه، وبثمنه نشتري ضيعة صغيرة.. هيه.. ما جوابك؟ من دون تلكؤ، فعلت ذلك.. تعجّلت رؤية أرضها تُحرث، تُسقى، يُحصد زرعها ليباع في المدينة علّها تُعوّض ما سرقت روح "هنو" الجائعة: البقرة و الدجاجات !

يوما بعد يوم، يكبر الحلم، تهرع إلى الباب مستقبلة "احماد" وسؤال لقيط بين شفتيها: هل أنهيت الإجراءات العقارية؟ مخيلة "احماد" لا تنضب، مهنتها اختلاق الأعذار.. طال انتظارها وعيل صبرها، واجهته لمّا خامرتها الشكوك، هذه المرة خاشنها.. أرغى وأزبد، أذلها، أشبعها ضربا، كاد يخمد أنفاسها، فتخلصت من قبضته، ثار، جرّها من ثيابها حتى تخرّقت، بان صدرها ملتويا، ضامرا.. جحظت عيناه الحمراوان ثم تمطى على البساط، يقهقه كمن أصابه مسّ، يعوي ويصرخ كالمخبول: حادة، البالية، المتلفعة، العفنة، أفني شبابي من أجلها، والأجساد الممتلئة في البلدة أتركها للديدان.. هيا.. احزمي أمتعتك وارحلي، اخرجي، فأنت طالق.. طالق.. طالق..

بهذه الدقات ياصاح، تبدأ الحكاية ويعلن القهر حضوره، تجبّره، انغراسه في الديمومة، وبهذه الكلمات التي أخطها، أنا شاهد القصة وكاهنها، أرسي معكم في آخر مرفأ رأيت فيه "حادة" وهي تبسط كفّها متسوّلة، طارقة هذه المرة أشرس الأبواب، أبواب المدينة!

وما بلّ عرقي يَباس الصغار!

مكتوب ربي نودّيـــــه

والصبر واجب عليـنـــا

واللي نحبـوه نخلّيـــــه

ياناس ما عتاها غبينـــــة

اذا هي دنيتك مهمومــة

وزمانك ماهو معاك مليــح

خلّي الدرسة فالتبن ملمومة

واستن حتى يهب الريــح

الشيخ عبد الرحمان المجذوب

إيه.. سبحان الواهب المُعطي.. من كان يظن عويشة أو يتصوّرها بهذا الثراء.. التي كانت تفترش الحُصر وتتغطى بدُثر خشنة، صارت تتقلّب على بُسط حريرية! وهذا الشاب الوسيم أمامي؛ يرشف العصير من كأس بلورية، مهدي، أذكره نحيفا، يملأ الخوف عينيه الغائرتين، يُشغل لُعابه بخلطة لُبابة خبز وشاي.. سبحان مبدّل الأحوال، فعلا؛ لكل أمر تحت السماء وقت !

كان الوقت عصرا، لمّا تسمّرتُ أمام المدخل للحظة أتفيّأ بظل الكَرمة.. ضغطتُ الزر ثم عاودتُ النقس مستعجلة هذا اللقاء، فجاءني صوت من خلال جهاز، أدركت من نبرته أنها هي.. عويشة الصديقة القديمة. ما كدتُ أكشف هويتي، حتى خفّت الخطوات لاستقبالي، ثم ضحك الباب عن وجه مورّد كم ألفته وافتقدته، كم ساع هذا القلب الطيب أسراري واحتراقاتي.. ضُمّيني أيتها الصديقة العزيزة، قبّلي خدودي الضّامرة، أختَك التي فارقتك وتاهت في مجاهل الحياة !

لم أبد أدنى دهشة أمام هذه الوجاهة، لأنني تنقّطت الأخبار قبل مجيئي.. نِعم الإبن مهدي، تغرّب وكافح حتى صنع لنفسه ولأسرته منزلة قلما تخلقها كثرة موزعة، أو ساعد فاسد هارب! أمطريني أيتها الصديقة أخبارا تثلج صدرا نَقَفَهُ القيظ، فأخرج التيه والضياع. لا طائل من الاستخبار عن أحوالي عويشة، فما من أسرار تطويها ثيابي المهترئة! حدثيني عن ابنك الصالح، وكيف أقبلت عليه المسرّة والسعة مهرولة، معانقة.. عن الجميلة مريم وزوجها الخليجي.. رقّهي عني حرقة مُصابي الجلل.. حلو كلامك أيتها العزيزة، و ما أمرّ تفاصيل أيامي.. حقيقة ترمّلتِ، لكن بقدر ما حُرمتِ عُوّضْتِ.. قبضه الله إليه فسلّمتِ، التراب وارى جسده، أبكيتموه.. لاكت الأفواه الخبر، في رثائه تفنّنت، وبعض الرغيف والتمر مضغت ثم لفّه النسيان. أعظم بموت تعفيك مشقة الترقب وعناء السؤال.. آه صديقتي، مذ اختفى وأنا منزوعة العقل، مخطوفة الخاطر.. جميع السبل سلكتها، كل الأبواب أكيد طرقتها، حتى الإذاعة ندائي المبحوح و

عذاباتي المنكسرة أسمعتها، لكن قصرتُ دون حاجتي! تعرفين من دون شك زوجي عبد القادر، العابث، الغافل، المنشغل عن بيته وأفلاذ كبده بالحشيش والجِعّة. كنتما أنتِ والحاج رحمه الله، خير الناصحين، المرشدين، بيد أن رفقاء السوء أمعنوا في شحنه وشحذه فقطع صلته بنا، اللهم بعض غاراته الخاطفة من أسبوع لآخر، لمّا يشتد افتقاره للمال. تلك البلية لا تشبع قط، مثل نار هي تأتي على كل شيء، فما تخلّف سوى الرماد..ابتلعتْ جواهري وحليّي، أثاث المنزل ومواعينه، فامتهنتُ أحقر المهن وما بلّ عرقي يباس الصغار! ناء الحمل بي، وما عدت قادرة على خدمة البيوت، خاصة أن ما أكسبه تلهطه الحشيشة والبيرة، فتوقفتُ عن العمل. هدّدني، نغّص عليّ حياتي، طبع عجزه على جسدي، قيحا وغبنا سالت ندوبي.. في النهاية، رحّلني والأطفال إلى منزل أخيه بالقرية.. أُثقلتُ هناك بالأعباء أكثر، أسابيع قليلة مضت، وجدتني بعدها مهجورة.. اختفى.. كانت خرجته تلك الليلة من غير رجعة، انتظرنا عودته، طلعته العفنة ككل مرة.. طالت غيبته، ربما لعبت الحشيشة بدماغه فهام على وجهه، خبطت به الدنيا مساعفها.. المهم لم يُعرف له أثر أو مكان. عيل صبري ونفد، ساعدي الفاسد، الهارب، عبد القادر أودعني الخلاء، مهما كابدتِ وتحمّلتِ، تنبذك النظرات، تدفعكِ خارج دائرة الأمان والرحمة.. " الدم ما ينفع الدم يا ويل من خانه ذراعه " صدقتَ أيها الشيخ المجذوب سيدي عبد الرحمان !

تبكين عزيزتي؟! مخافة أن تتناثر أشلائي تضمينني، تقبّلين رأسي طالبة العفو والسماح! مُدّي يديك، ألثمهما اعترافا بالحدب والكرم، وما نفّستا عليّ من كرب! أُحسّك تغلين نادمة على شرائك بعض الأواني و الأغراض المنزلية من عبد القادر.. في البداية حزّ في نفسي افتراشك وثائبي وأغطيتها، رؤيتي الصحون الطاووسية الحُرّة، كؤوسي، وأشياء أخرى في بيت صديقة حميمة، لا أملّ من التردّد إلى منزلها! لكن عويشة؛ وقد جشّني الزمن وبراني، ضاع كل شيء من ذاكرتي، ولم تبق في صدري ذرة غيظ أو غضب تجاهك..في كل الأحوال كان عبد القادر سيبيعها.. كفكفي دموعك حبيبتي فالمسألة ما عادت تستحق ندما أو رثاء!

أمضيتُ عند عويشة شهرا تاما، مرّت خلاله الأيام كالتماعة برق، ما من أحد يملّ من مجالسة هذه المرأة، تنسيك الموت ولو كنتَ تواجهه على حبل مشنقة.. عندما نسألها عن سر امتلائها ونضارتها مع تقدمها في السن، تضحك حدّ البكاء مجيبة: والله وخا تاكلو الحلبة والعسل وشحمة البغل والجمل ما تسمانو.. قلوبكم حارّة، شوفو – مشيرة إلى وجنتيها – موت القلب الباهْتات !

إي عويشة " القلب اللي كان مهموم، اللون يعطي اخباره!"

حانت ساعة الرحيل وتهيأت الأسرة الصغيرة عند المدخل لتوديعي.. ما ألهب حرارة اللحظة، الكلمات تعثرت في حلقي، دموع ساخنة سبقتها و أنا ألتحف نظراتهم النديّة الصادقة.. خفّ مهدي إلى السيارة، شغّل محركها ثم أشار إليّ بالصعود، وقبل أن أغادر المكان الظليل، اقتربت مني عويشة، كانت عيناها تتطلعان إليّ بحنان، تغالب دموعها مجرجرة بصوت متقطع، مبحوح: مهدي سيأخذك إلى المحطة، بعض الأغراض التي اشتريتها من عبد القادر في السيارة.. لا كلمة من فضلك و لا اعتراض! فقط سامحيني، وكرّري الزيارة!

حبيبتي لم تترك لي فرصة للكلام، فكّت قبضة يدي، ثم ملأت راحتي أوراق مالية.. و عانقتني طويلا..حاصرني شذى صدرها الكبير.. ظل الكرمة كان واضحا أسود و النسيم الرقيق يداعب أوراقها كمن يُبشر بأزمنة جديدة و فصول القطاف المجيدة..

"عبد القادر أيها الفيء الهارب، ليتني أستعيدك مثلما استعدت أمتعتي وأغراضي! عفوا حبيبي..أغراضنا و أمتعتنا"!!

قلب سَكيب

"آه ياأحمد، كم نحن محبوسون في أجسادنا وعقولنا.. إننا دائما نعطي الآخرين صفاتنا، وننظر إليهم من خلال مضيق من آرائنا وتفكيرنا، نريدهم أن يكونوا " نحن " ما وسعنا ذلك، نريد أن نحشرهم في جلودنا، أن نعطيهم عيوننا كي ينظروا بها، وأن نلبسهم ماضينا، وطريقتنا في مواجهة الحياة.. ونضعهم داخل أطر يرسمها فهمنا الحالي للزمان والمكان".

غسان كنفاني

كل شيء في عينيه يتلوّن، يتلقّع احتفاء بالجحيم، عزاؤه الوحيد قدرته على الرؤية بعيون الآخرين، يشقى ويسعد بنسقه وتنظيمه الخاص للمجال والمحيط الذي ما فتئ يتنفس ويعيش أسئلته الملحّة. هادئ كعادته، اجتماعي رغم انتصاره للاستقلالية والتفرّد، وعزوفه عن العلاقات الحميمية، فحتمية الافتراق ما هجرت يوما ذهنه. إنه لا يخشى موته حزنا أو كمدا بقدر ما ترعبه نهاية مجانية، وذكراه التي ستطمر وتخضّب بالنسيان.. من دون شك، الزمن غريمه الوحيد، والبطء في السير في نظره، يصيّره مثل الغرين.

فكرة الزمن، تمتصها لبعض الوقت شجّة مطرية.. جسده يراقص حزن السماء.. سياطها الغاضبة.. لا يعدو طلبا للاختباء، ولا تربكه نظرات الاستغراب وهو يمشي مرحا، تيّاها، مزهوا.. شاخصا بعينيه المغسولتين إلى السحاب، يرجوه مزيدا من التشحيل والصفاء. كم ودّ لو كمّ الأفواه المشرعة والعيون المحملقة، وفدّ في غير كياسة: ويْكم.. أتخشون أسرار السماء، وأنتم لها متبتلون صبح مساء، أم قلتم حسبنا فتاتا نقتات منه؟ كيف غابت عنكم الآفاق والمدى، وصرتم عبيدا لجدب وقحط و مسلّمات حيرى؟ هاهي ذي قطرات الخلاص تغسل قبحي، تجدّد وجودي المنمّق.. فأرجوكم.. أرجوكم ثلّ الأبواب وسدفها.. دعوا العواصف والشمس والأمطار والنجوم، دعوها تُعرّي أحزانكم، هلمّوا قبل أن أُصلب بصمتكم !

ما إن يسحّ المطر، ويتسلل إلى جسده لاحسا غبنه، حتى ينخرط في حواراته ومناجاته، وقد يحصل أحيانا أن يُشغّل خياله، فيحرّك الشفاه المتخشبة، والعقول الجامدة.. يتعزّى متأملا نفسه بعيون الآخرين: كم يبدو غريبا، بل أحمقا، وكأن السماء ستشحّ ولن تعاود البكاء أو الأنين.. ما أصغرك يا رجل وأنت تعاند العاصفة هلمّ واقنع بسويعات من الدفء، فلن تخرق الأرض أو تبلغ الجبال طولا..

كلمات كهذه، ما ثنت جسده يوما عن مراقصة المطر..العواصف أيضا لم تُذلله قط، أو تجبره على الاستسلام لهذر البشر.

عالمه الخاص لا يثير في رأيه الدهشة، ولا شيء فيه ينضح بالغرابة.. إنه فقط يعيش ذاته، يريد أن يكون هو وليس الآخرين، أن يقبر أي فعل منمق أو إخفاء مبتذل.. "هي ذي طبيعتي المنحسرة، هوذا حزني وشقائي، شاهد قبري المرتقب، وفنائي المحقق.. فلم نهرب إلى النفاق والخديعة، ونخشى الحقيقة؟ هلا اعترفنا بوهننا والبؤس الذي يسكننا! لم لا نكون نحن بكل صفاتنا الأزلية"!

عظيمة أسئلته التي تسبق هطول المطر، فإن بدأ استغنى عن الإجابات مكتفيا بإيقاع ملائكي، منتظم لقطراته، ونظرة شزراء لأكياس آدمية تهاب الضجر. وجهته هذه المرّة كل الدروب والأزقة الموغلة في

الوحل.. من دون شك سيشم به جسده وهذه النوافذ الصغيرة، الكئيبة، الموصدة.. سيخرّ لطهارة المطر، ويرجوه الاحتفاظ بوشمه.. عار أزقتنا ودروبنا وحتى شوارعنا الرئيسة.. ترقّ السماء لابتهالاته فيعانقه رذاذ خجول عناق النحل لرحيق الزهر. تدبّ الحياة في الأكياس، تتحرك، تنفض عنها غبن الأيام، وتفتح الأذرع مرحبة بمطر خفيف، ونسمات دافئة، وجوّ ربيعي، وطلّ وردي. تترجّى الأكفّ السماء دوام الحال..تطلب، تتوسّل، تتضرّع، فتستجيب السماء لنقيض الدعاء! الرذاذ الرقيق يستحيل مطارق تدك الرؤوس الطرية، خيوط المطر سياطا تجلد الظهور المقوّسة.. والبرد يمتص دفئهم الزائل الوقتي، إنهم هاربون من جديد وعاشق المطر يتوسط شارعهم الرئيس، يكركر ويكركر.. يتملّى المشهد بغير دهشة، فقد ملّ الرؤية بعيونهم، وتعوّد انسحابهم الذليل، وتكدّسهم تحت سدف الدكاكين والمتاجر. يستشيط غضب السماء، يومض البرق، يقصف الرعد، وعاشق المطر يستنزل المزيد و المزيد.. يتحرك بؤسه ويكبر عذابه.. تضنيه وحدته في باحة الطريق، هكذا يُسيّج وجوده الضروري، لا زمان، لا مكان، ولا وطن يحمي انهياره اليومي.. كم ودّ لو كمّ الأفواه المشرعة والعيون المحملقة، وفدّ في غير كياسة: ويْكم.. أتخشون أسرار السماء، وأنتم لها متبتلون صبح مساء، أم قلتم حسبنا فتاتا نقتات منه؟ كيف غابت عنكم الآفاق والمدى، وصرتم عبيدا لجدب وقحط و مسلّمات حيرى؟ هاهي ذي قطرات الخلاص تغسل قبحي، تجدّد وجودي المنمق.. فأرجوكم.. أرجوكم ثلّ الأبواب وسدفها.. دعوا العواصف والشمس والأمطار والنجوم، دعوها تُعرّي أحزانكم، هلموا قبل أن أُصلب بصمتكم !

أزيز الرعد صمّ أذنيه، ففات أوان الزعقة أو التنبيه، كان عناقا حارا بين الموت وأخيه.. بين حافلة من حديد، وعاشق أيقن نهايته كأي متمرّد شريد، كفنه السماء والرصيف. جسده هامد، ساكن، مسجيّ بسَكْب متواصل.. مؤكد يا عاشق المطر، ما انتظرت تضميد الجراح أو وقف النزيف.. اسمح لي سيدي أن أرى بعينيك: خليق بي كرع دمائك التي يجرفها هذا الغدير.. أليس كذلك أيها الأمير؟!!

أمي..

أنظر، هناك عند مدخل البيت تجلس أمك، تحبها من دون شك، بيد أنك تخشى الاحتراق في أبهى لحظات التوحّد، فتغضّ طرفك عنها وتهرب.. تذكّر أن الساعة آتية، سيشقّ الفأس تربتك الندية.. أمك السنبلة الممتلئة، الثابتة الآن.. غدا تصير طيفا شاحبا، يابسا.. ستندم، ومع آخر عناق وقبلة سـ ت ت ف تّ ت بين ذراعيك، تـ س ر ق ها الرياح منك.. ت نـ ث ر ها، ويفضل السراب رفيقك السرمدي..

خسرتُ كُللي مرة أخرى، لم ألق بالا لتنبيهات صديقي "محسن"، فهو أدرى مني بمهارة "ياسين" وقدرته على إصابة كُلل الخصم مهما بعدت، تكلّفتُ المرح أمام أصدقائي، وكبحت دمعة كادت تخدش كبريائي، حينما رأيته يعدّ كلله بفرح.. فجأة، فضّت "بهيجة" الحلقة وهرول الجميع للتأكد من الخبر.. وجدتُ الفرصة مواتية، تقدمت أقراني في سرعة البرق، تسللت من بين أرجل النسوة، وخرقت أزرهن، وما كدت أرى أمي، حتى حرّرت غصّتي وأسبلت دمعي.. أبكي هذا الإغماء، وتلك الخسارة النكراء !

مشهد متكرر.. كلوح خشبي خمّرته المياه، مُدّد الجسد، بتفاصيله الذاوية وضموره البيّن، الحدقتان نقطة داكنة في بئر عميقة، سحيقة، والشعر مغبر في تناسق مع التراب. "رقية"، العجوز الشمطاء، سليطة اللسان، ناقصة الأسنان، تُحوقل، تُبسمل، وتلهج بالدعاء دفعا للغمّ والهمّ والحزن. أمقتها، بل ترعبني نظراتها البُعبعية إن شدت تِكّة سروالي مزمجرة كالعادة: تبقى لصيق أمك وتبكي لأنك في حاجة، متى اشتدّ عودك، تكفكف دمعك وتمضي لحال سبيلك بحثا عن امرأة! بئس صنفا الرجال !

حقيقة ما كنت ظل أمي أو لصيقها، بيد أني حضرتُ ظروفها الصعبة فامتلأتُ من الشجن قبل الأوان. أدركت رغم حداثة سني، أن امرأة أخرى في حياة والدي، سبب تصدعاتنا وانهياراتنا، قالوا زوجة والبعض عشيقة، لكن التذبذب واختلاف الاشاعات لم يمنع الإغماءات وارتفاع الضغط، ووجع الرأس، وامتلائي من الشجن.. أيضا ما زحزح إيماني بحبهما الكبير.. رأيته يوما يقبّلها راجيا، يهرق العطر ويمسّد رجليها، علّها تسترد وعيها الغائب، كان يدمع في توسل حتى شككت في أمر تلك الميتة المؤقتة وظننتها نهائية. أفاقت أمي، تنشّقت نسيم الحياة ومعه الكدح والعذاب المرتقب.. الزمن دائما يدحرجنا بلا هوادة نحو كمائن الكبر فالنهاية.. خشن صوتي وغطّى الشعر جسمي، واهتاج صدري ساعة كل كبوة.. مات أبي فأمست قصة الزوجة الثانية ذكرى أو نكتة للتسلية.. ودّعتُ زمن الطفولة بشقاوته ونزقه وما فيه من طهر وبراءة.. لا أدري أكان النسيان أو التناسي نقمة أم نعمة، لكن الأرجح، أنه إكسير استمراري وبقائي ..

أماه.. هو ذا العمر يجري، يُنهي دورته الضرورية لبداية جديدة.. مؤكد سيخلّف غضونا تخدش هالة عينيك .. أقصد حفرتيك الداكنتين! الآن.. ماذا جنيتِ من الإغماءات، وكمّ الفم، وكظم قروح القلب وأسراره؟! ماذا لو خرقتِ حاجزك الوهمي.. لو حطّمتِ حاجز الصمت والجبن؟! لستِ ضحية الزمن الغادر، لعمري هو الخوف أماه.. إنه سرّ دونيتنا وانهزامنا في جل المعارك، حتى مع ذواتنا.. الحق أقول لك.. أحترم شجاعة أبي وسموقه، كان يؤمن بإرادته فقط، حتى وهو يتوكأ بعصاه واقفا، كان يتقوّى باسم والديه.. لم يعلق صليبا ولا استعان بسبحة في الصلاة.. متفرد في قراراته لدرجة التعصب.. إنه بطل من نوع آخر!

ـ ألستَ تخشى عقاب الله أبي؟

ـ أنا لا أهاب أحدا.

ـ ولكن الله ليس أي أحد.. فهو خالقنا.. و! ..

ـ وقاضينا وحاكمنا.. أعرف هذه الأمور جميعها.. غير أني أرفض صلاة أو أي فعل آخر تقوده الرهبة والخوف.. وحدنا نملك اختيار سبلنا عن قناعة وليس عن..

ـ خوف!!

هكذا كان أبي بمزاجه الخاص ومراسه الحاد، ودأبه المتواصل في سبيل راحته.. أما أنت فضائعة، ذائبة في أحلام الآخرين .. ربما ما كنتِ أبدا!! كان وكنا وكنتِ الكلمة التي ما صارت جسدا! والظلام يخطف النور ويرهن ألقه.. والنور لا يقوى عليه! أماه.. مرفأ عينيك لفّه الضباب، واحتوته الظلمة.. كل السفن هجرته، أبحرت حيث الحياة، الأضواء، الأنوار والأبواب الواسعة، لكن سيظل قاربي الصغير وفيا، يمخر سواد حفرتيك، يشق أصعب الطرق، وأضيق الأبواب، يرسو في مرفأ مقلتيك، وينشِق حصاد انهياراتك وإغماءاتك المستأنفة: العمى!

أماه.. كدماتك ما فتئت تخفرني، تجدّد حقدي، كرهي للأشياء، بين حاجبيك غرس الفرن زواياه، وأصابع قدميك قُرِضت وهي تتحسّس عتبات الغرف، وهل أنسى المائدة ساعة أسقطتك والجرح البليغ يُطبع على ركبتيك؟ لا يا أمي.. أي ندب، أي أثر خلفه العمى، يذكي عطشي للسؤال ونفي المُحال!

أماه.. عذرا إن أثار موكبي غبار أيامك الخالية الباقية، الماضية الحاضرة، أو رفعتُ اللثام عن بعض أسرارك.. لن أنكأ جراحك القديمة، قسرا أرفع قلمي، ثم أفجّر السؤال: إلى متى نظل سدنة الرمز، خُدّام الظلام وعبيد الأسطورة؟ أكان قدرنا العمى أم هو الخوف سر مأساتنا العظيمة؟

ألبوم صور

ما قيمة الفرح وأنت تُدرك زواله، تُمنّي نفسك بغبطة ومسرّة لُحيظات فقط وبعدها تغرق العمر كلّه في ويلات الوحشة والفقد والانكسار.. لا .. لا يا صديقي! لست بحاجة إلى فرح يحقق توازني النفسي، أو وصفة تفكّ عقدتي، سعيد أنا باختلالي ولو وُسم بالأبدي، فربّ مخلص لألم من غير تذبذب! هو مات.. خَرَع السقم جسده فودع الأحباب والأصحاب بلا إرادة، أتنتصر على قدر اعتبطك، أم أجلو صدأ أوتاري وأحتج: لماذا تركتني يا أبي؟ حتما سيرجع الصدى صمتا يلهطني والمكان! آه يا وجع الرأس! يا غور الجرح وظلم السنين! يا انفلات الحلم وكل شيء جميل! يا قبحا، حسرة، تيها، تورما، قنوطا، لعنة توشي خيبتي بهروب إلى الأنين! الصمت ذاته يلهطني وسري الدفين..

يستبدّ بي الحنين إلى صوت والدي، وملامحه المتخشبة الصارمة، فأهرع مستنجدا بألبوم الصور. انهيار حتمي أهف إليه من توجسي وطأة الزمن ورحاه التي لا ترحم كلما أمعنتُ النظر في صورة. الشعور بوقتية الأشياء ينخرني، لكن ما أعذبه احتراق، فقد صرت والعوز وجهين لحزن واحد. الأبيض والأسود والبذلة العسكرية تبعث الحياة في الذاكرة الخامدة، أبي بوقفته الرسمية يضارع مومياء في نظراته الجامدة أو الضائعة.. صديق بجانبه يمنح الأرض حياءه و ارتباكه، أتملاّه متجاهلا أقرب وجه.. إنه عبد السلام أو بالأحرى " عبد السلام البكاي "، هكذا يناديه الزملاء في المعسكر، فلا يغضب أو يتجهم بل يعترف مستسلما وبدون مُركّب نقص. أبي كان يتفكّه بعبد السلام الخجول، المرتبك خلال مسامراتنا العائلية.. تتفرقع الضحكات ملء الأشداق وهو يسرد كيف كان الصديق يودّع زوجته البدينة، والدمع يتدفق من مآقيهما بكل وهن وتخرّق من غير اكتراث بالمتحلقين.. يومها سألتُ والدي وأنا أمتطي ظهره في شقاوة: وعلاش تايبكي صاحبك واش مازال صغير؟! يُعدم سؤالي بكركرات مجنونة، فأكتفي بدهشة وصمت واستفهام آخر يداهمني: علاش هما إيضحكوا وعبد السلام يبكي؟!!

أضيع بين الصور الناضجة إطاراتها بفعل الزمن، انهيار حتمي أهف إليه وأنا أبحث عن الوجه الغائب إلى الأبد.. الموت تيمة تسرق مني كل رغبة في الحياة وأخواتها.. الأمل.. الحب.. الرجاء.. البهجة.. الطموح.. الابتسام.. لا أجد لها مستقرا في ذاتي حتى لتكاد تتبخر أو تنعدم .. أبي واسطة العقد في هذه الصورة، تنفرج شفتاه عن أسنان ناصعة المرارة.. رشيد، لطيفة، حسناء، جميعهم حملقوا في آلة التصوير إلا أنا، أنا فقط.. غرست أظافري الصغيرة بين إيقاعات جلباب والدي.. ودفنت هامتي بين ركبتيه مدبرا نسخ الذكرى.. ما زلت أذكر ذلك اليوم الربيعي.. كان الوقت عصرا حين خرجنا في نزهة مع الوالد.. يفعل ذلك ليعوضنا عن الأشهر التي يقضيها مرابطا عند الحدود.. يبتاع لنا أغلى الملابس وألذ الحلويات.. رشيد، لطيفة، حسناء، جميعهم كانوا يركضون فرحين مغتبطين، وحدي فقط لا أبرح ظل والدي نظير راحته الضخمة التي تعبث بشعري دون أن تبرحه، فأحس لذلك شعورا غريبا، تترجمه زفرة عميقة من صدري الصغير.. و في النهاية، نؤرخ للنزهة الحلم بصورة، أدبرها أنا فقط، اغتيالا للذكرى .. ساعة عودتنا أحتفظ بنفس صمت وهدوء أبي، ولولا تعليقات إخوتي بين الفينة والأخرى لخلتنا عائدين من جنازة.

ـ فوقاش غادي تسارينا أبا عاودتني؟(متى ستأخذنا في نزهة أخرى يا أبي؟)

- حين نرجع مرة أخرى من الصحراء.

- عنداك أبا تنسى الفرماج ودانون وديك الحلوة المزوقة..

(لا تنسى أن تحضر لنا الجبن و الحلوى الملوّنة...)

- اللي بغيتوه نجيبو ليكم.. غير قراو مزيان..

(كل ما تطلبونه سأجلبه لكم لكن واظبوا على المذاكرة ...)

جميعهم يطلبون إلا أنا .. فقط أطبع قبلة على خد والدي.. تخزني لحيته الصغيرة.. أتأوّه فيضحك الجميع إلا أنا.. أنا فقط.. تصفعني رياح الحدود، الرمال تكمّم فمي.. تبتلعني الصحراء..

الذكرى مهما كانت جميلة، إن تلج معمعة الماضي، تغدو صريرا حادا، لا يغري بالإبحار ساعة الخلوة، وقتية هي، أنّى لها الصمود وقد سُرقت منا كل الأزهار، وتاقت الأعناق لنهاية الأحرار.. آه يا قلمي الذي ما عادت تطاوعه العبارات والشعارات، حذار من الاجترار!!

ألبوم الصور يترنح بين أصابعي، تقلب صفحاته البلاستيكية بعصبية، ما يصطخب في داخلي تُترجمه الأصابع، أما قسمات وجهي فقد استنفذت كل التعبيرات، عيناي فقط تلتقطان عجلة الزمن التي أحسّها تطويني، تقرضني و أنا أتدرّج في معاينة الصور.. هذه المرة، أعاني التشتت، مالي طاقة على لمّ هذا التشظي.. زغاريد يُهدهدها الأثير.. عطور ورائحة شواء.. موسيقى، رقص وانتشاء.. باهتة تفاصيل ذاك العرس البهيج، لكن لا مندوحة من الوجه الغائب حتى الأجيج.. ما كان الفرح فرحنا، ولا العرس عرسنا.. نحن نشارك الآخرين مسراتهم، ونمنّي غصّتنا بحبور مستقبلي، مسكين يا أبي، ما حسبتَ الثرى يطوي أقدس أحلامك.. كم زفافا عائليا انتظرت وانتظرت.. ووعدا بالراحة بعد التقاعد صدّقتَ وصدّقت!! إيه متاع الغرور، لو تعلمين كم وهما عاشه والدي.. كم سلّما ارتقى بخياله ليعانق أقواس قزح، لوضعتِ له أولى لبنات " مزار الأحلام المؤجلة ". جلبابك الأبيض أبتاه يخرم رهافة حسي.. عمامتك باستدارتها المُحكمة تطوّق عنقي حد الاختناق، تحرقني اللحظة.. الجلباب يصير إزارا، والبنية القوية تستحيل قشة شاحبة، أما العمامة فعصابة شُدّت بها رأس على وشك الانفجار.. مؤكد رأسكِ يا ذات القلب الكبير! كل شيء ينقلب حقيقة مطلقة، لا الفرح فرحنا ولا العرس عرسنا، احتفالية الصمت والكفن قدرنا، تالله إن المسرّة تخدر الوجدان! الحزن استوى على الزقاق فامتلأ صياحا وعويلا .. هي ذي الفرصة المتكررة، فلتقفر العيون من البكاء، ولتُخْرج الصدور زفرات متعبة لعشق وهمي، عطالة مُمضّة، طموحات مجهضة، قهر يومي، حرمان وبؤس مخفي، فنحن نهيئ الجنازة!

أوهنتني الذكرى وحرقة الموكب، الصداع شق رأسي، ما احتملت أصابعي هول اللحظة، فانفلت الألبوم ليخرّ تحت قدمي مجندلا، شاهدا على السقوط.. خلّفته حيث تهاوى واستنجدت بالنافذة، بحاضر كله تنميقات.. "لا ترقصي يا نفسي فانا أعيش الزيف فقط كي أمنح الشّرخ فرصة الالتئام'!!!

سعيد

من كيس إسمنت صنع "سعيد" قلنسوة تدرأ عنه مطرا غزيرا اهدودر صباح يوم منذر بأزمة صحية لكافة تلامذتي.. علت أساريره رهبة وارتباك وهو يخلع طربوشه الإسمنتي، و كعادتي لم أستفسره عن سبب تأخره و طلبت منه الجلوس ثم مهّدت للدرس.. سؤال يعقبه سؤال..حركة، إيماءة، تشخيص من أجل البداية فقط ولكن ولا جواب و كأنني أخاطب العدم! فتحت النافذة وانخرطت في تأمل عبثي و أنا أحتسي المهزلة. تفرّستُ في الوجوه باحثا عن الخلل فكانت للعيون الصغيرة لغة العتاب والفراغ والأمل، وطفقتُ أفك رموز شفرة طفولية لامست روحي مثل الوحي مُلِحّة في العتاب: من يحسّ الجوع الراقد في بطوننا؟ من يلوك اللعاب عند كل وجبة غيرنا؟ من سيطلب معرفة وراحة الزمن تصفعنا؟

"لماذا يا حزن تصوم عن لثم ستائر نافذتي، تحرمني من مسوحك، تُعرّيني و تُبيح جسدي للشمس والفرح؟ البارحة استجدت عيناي دمعة فامتنعت، و أمرتك بالسجود لآهاتي و رَمْس مسرّتي فاستكبرت! ملعون أنت يا حزن، يا حبيبي، يا مولاي! بثمن بخس بِعْت حرّيتي..عفوا خَطّت رحمتك صَكّ عبوديتي للفرح"!

بهذه الديباجة صدّر "سعيد" مذكرته الجديدة لعام 2001، مذ تعرفت إليه ومسحة الأسى تُلازمه.. هادئ، طيب، يقطع الوقت بالكتابة ويسخر من زمن صيَره يتيما، عاطلا، و امرأة، فإخوته الصغار أجبروه على ممارسة الازدواج. قرأتُ خاطرته واستفهمت: يا صديقي، طرق الفرح بابك، فلماذا لا تضيفه وتنفض عنك مسوح الكآبة؟

أدام "سعيد" النظر في حذاء أشرع فمه ثم ابتسم كاشفا عن أسنان صفراء شاحبة وقال:

ـ خِلتك سائلا عن سرّ هذا الفرح.

ـ وما سره؟ هل حصلتَ على وظيفة؟

ـ شهادتي الجامعية لا تُعطيني هذا الحق لأنني فلاح أصلح لمعالجة الوحل فقط!

ـ وما السر إذن؟

ـ سأذعن لوصية جدي القديمة و أهاجر!

والحقيقة لم تكن هذه أول مرة يُخبرني فيها "سعيد" عزمه الرحيل فيبقى رهين مكانه و كأنه أضحى جزءا من آثاره السحيقة، لذلك لم ألق بالا لجوابه و لما أحس تجاهلي أردف قائلا:

ـ أنا جاد في قراري هذه المرة!

ـ مادمتَ مقتنعا بوصية جدك، سيكون اغترابك خلاصا من لعنة هذا المكان.

ثم تابعتُ في قرارة نفسي..

"سترحل يا صديقي حينما تُخمد قهقهة الحذاء وتنتعله"!

لأن الجوع هوالمأساة

ـ إلى أين عزم هذا السيل من النساء؟ سألت تلاميذ الفصل
ـ زوجة الحاج زايد توفيت، و هن قاصدات داره للتعزية.
و الواقع فقد بلغ مني الخبر و حزّ في نفسي رحيلها، فصيت هذه المرأة ذاع حتى وصل القاصي والداني لتواضعها ونبل أخلاقها.. سكان القرية يتفاءلون بطلعتها المباركة فهي من تَقْبِل الحوامل وتعدّ الولائم في الأفراح و نادرا ما تترك الزوجين المتخاصمين يتقاسمان مرارة الفراق و الجراح.
و إذ نقلتُ الخبر إلى صديقي، تأسفَ و نَكَتَ الأرض بأصبعه قائلا:
ـ بصيص السّعد خبا، للنحس والشؤم أن يغشى القرية ويعيث فيها كما يشاء.
ثم استطرد مستفسرا: متى سنقصد دار الحاج زايد؟
ـ عندما يجف هذا السيل من المعزين و المعزيات.
الحاج زايد من عُلِّيَّة القرية و وجهائها غير أن مظهره يوحي بغير ذلك، فهو ضامر الجسم، غائر العينين، خفيض الصوت.
توجّهنا إلى بيته رغبة في التعزية فاستقبلنا بوجه مُرْبَدّ أثقلته الأشجان..تمتمنا بقليل من عبارات التأسف لقلة التجربة ثم ناولته "قوالب السكر" تماشيا مع عادات المنطقة في الأفراح والأتراح.
اخترقنا ممرات والحاج يتقدمنا حتى بلغنا غرفة الاستقبال..جلست إزاء صديقي بينما أسند صاحب البيت رأسه إلى الحائط وشرع يفرد الماضي ويلملمه معدّدا مناقب الفقيدة، متحسرا على خصال قلّما نجدها في هذا الزمان.. فقد عانت المسكينة – كما روى الحاج– من قصور كلوي غير أنها اختارت الصمت والصبر بلسما لآلامها وعندما لازمت الفراش واشتد المرض عليها نُقلت إلى المستشفى فاستغرب الأطباء لجلدها ورباطة جأشها، فالمريضة لم يُسمع لها أنين، بل كانت باسمة الثغر، مشرقة الوجه تنتظر الموت ببسالة الأبطال حتى لاط بها ولفظت آخر أنفاسها..استمر الحاج في سرده بسمت الجد والوقار إلى أن دخل علينا بعض رجال القرية المعزين وفي أيديهم "قوالب السكر" كوّموها عند مدخل الغرفة قبل مواساة المفجوع الذي لم يجد عناء في اجترار ما سلف حكيه بصوت مبحوح وانكسار واضح أثرا في الوافدين حتى كادت الدموع تطفر من بين أهدابهم..و بينما لسانه كان يجتهد ليفصّل المأساة كانت عيناه مشدودتان إلى مدخل الغرفة حيث وُضعت "قوالب السكر".. لم نبق لسماع تفاصيل أكثر عن الفاجعة و استأذناه في الانصراف والغريب أنه ظل يحدّ نظره إلى "القوالب" حتى تدحرجت دمعة سرعان ما ابتلعتها شعاب وجهه مثلما ابتلعتنا دروب القرية و أكواخها الصغيرة .
أثناء عودتنا بادرني صديقي قائلا:
ـ أصحيح أنه من أشراف القرية؟
ـ هل لاحظت شيئا يوحي بغير ذلك؟
ـ لا أجد سببا وجيها لصمتها الطويل رغم خطورة وضعها الصحي، أظن الحاج ضنّ عليها بالمال حتى تمكن منها المرض فلم يُجد معه دواء أو طبيب.
لم أعلق على ملاحظة–عفوا غِيبَة– صديقي وانشغلتُ بتأمل أشجار النخيل المنتشرة على طول الطريق دون أن يدري بأن كلماته هدمت أسوار شكوكي وجعلتني أدرك أن العيون أحيانا قد تسيل لعابا!